كيف نقرأ الكتاب المقدَّس

المتروبوليت كاليستوس وير

"كلُّ الكتاب هو موحىً به من الله" (2 تيموثاوس 3: 16)

كتب القدّيس تيخون زادونسك (1724-1783) قائلًا: "لو أنَّ ملكًا أرضيًّا، إمبراطورنا مثلًا، كتب إليك رسالةً، أما كنتَ لتقرأها بفرح؟ نعم بلا شكٍّ، كنتَ لتفعل ذلك بفرحٍ عظيمٍ وانتباهٍ شديد". ثمّ يتساءل ما هو موقفنا من الرسالة التي وجَّهها إلينا الله نفسُه. "لقد أُرسِلت إليكَ رسالةٌ لا من إمبراطورٍ أرضيٍّ، بل من ملكِ السماء. ومع ذلك، فإنّك تكاد تحتقر هذه العطيَّة، هذا الكنز الذي لا يُقدَّر بثمن". ويضيف القدّيس تيخون أنَّ فتْح هذه الرسالة وقراءتها هو دخولٌ في حوارٍ شخصيٍّ وجهًا لوجهٍ مع الإلَه الحيّ. "عندما تقرأ الإنجيل، المسيح نفسُه هو مَن يخاطبكَ. وخلال قراءتك، أنتَ تُصلِّي وتحادثه".

هذا بالضبط موقفنا الأرثوذكسيُّ من قراءة الكتاب المقدَّس. ينبغي لي أن أرى الكتاب المقدَّس كرسالةٍ شخصيَّةٍ من الله موجَّهةٍ إليَّ أنا تحديدًا. ليست كلماته موجَّهةً فقط إلى آخرين بعيدين في الزمان والمكان، بل كُتِبَت لي أنا بشكلٍ خاصٍّ ومباشر، هنا والآن. وكلّما فتحنا كتابنا المقدَّس، ندخل في حوارٍ خلَّاقٍ مع المُخلِّص. وفي إصغائنا إلى كلماته، نستجيب أيضًا. نجيب الله فيما نقرأ: "تكلّمْ لأنّ عبدَك سامع" (1 صموئيل 3: 10)، و"هأنذا" (إشعياء 6: 8).

بعد قرنَين من القدّيس تيخون، عُقِدَ مؤتمر في موسكو في العام 1976 بين الأرثوذكس والأنجليكان، وفيه جرى التعبير عن الموقف الحقيقيّ من الكتاب المقدَّس بعباراتٍ مختلفةٍ لكنَّها لا تقلُّ صوابًا عما ذكرناه. تشكِّل هذه الوثيقة المشتركة، الموقَّعة من ممثِّلي التقليدَين كليهما، خلاصةً ممتازةً للرؤية الأرثوذكسيَّة: "تولّف الأسفار المقدَّسة وحدةً متماسكة. وهي، في آنٍ، موحىً بها إلهيًّا ومُعبَّرٌ عنها إنسانيًّا. إنَّها تقدِّم شهادةً موثوقةً على إعلان الله عن ذاته في الخليقة، وفي تجسُّد الكلمة، وفي مُجمَل تاريخ الخلاص، وهي بذلك تُعبِّر عن كلمة الله بلُغةٍ بشريَّة. نحن نعرف الكتاب المقدَّس ونتلقَّاه ونُفسِّره من خلال الكنيسة وفي الكنيسة. وموقفنا من الكتاب المقدَّس هو موقف طاعة".

وبالجمع بين كلمات القدِّيس تيخون وبيان موسكو، يمكن تمييز أربع سماتٍ رئيسةٍ تُشكِّل "الفِكر الكتابيّ" الأرثوذكسيّ. أوّلًا، إنَّ قراءتنا للكتاب المقدَّس هي قراءةٌ **مُطيعة**. ثانيًا هي قراءةٌ **كنسيّة**، في اتّحادٍ مع الكنيسة. ثالثًا، هي قراءةٌ **متمركزةٌ حول المسيح**، ورابعًا، هي قراءةٌ **شخصيَّة**.

قراءة الكتاب المقدَّس بطاعةٍ

بادئ ذي بدءٍ، نحن ننظر إلى الكتاب المقدَّس على أنَّه موحىً به من الله، ونقترب منه بروح الطاعة. وقد شدَّد كلٌّ من القدِّيس تيخون ومؤتمر موسكو عام 1976 على الوحي الإلهيِّ للكتاب المقدَّس. فقد كتب القدِّيس تيخون أنَّ الكِتاب المقدَّس هو "رسالة" من "ملك السماء"، و"المسيح نفسه هو مَن يُخاطبك". أمّا المؤتمر فأكّد أنَّ الكتاب المقدَّس هو "شهادة" الله "الموثوقة" عن ذاته، يعبّر فيها عن "كلمة الله بلُغة بشريّة". واستجابتنا لهذه الكلمة الإلهيَّة يجب أن تكون بحقٍّ استقبالًا مطيعًا. وخلال قراءتنا، ننتظر الروح القدس.

بما أنَّ الكتاب المقدَّس موحىً به من الله، فإنَّه يتمتَّع بوحدةٍ جوهريَّة واتِّساقٍ تامٍّ، لأنَّ الروح عينه هو المتكلِّم في كلِّ صفحةٍ من صفحاته. نحن لا نشير إليه بصيغة الجمع "الكتب (ta biblia)"، بل نُسمِّيه "الإنجيل" أو "الكتاب"، بصيغة المفرد. إنَّه كتابٌ واحد، كتابٌ مقدَّسٌ واحد، يحمل رسالةً واحدةً عبر سرديَّةٍ مركَّبةٍ لكن واحدة، من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا.

في الوقت عينه، الكتاب المقدَّس معبَّرٌ عنه أيضًا بطريقةٍ بشريَّة. إنَّه مكتبةٌ كاملةٌ من كتاباتٍ متمايزة، كُتبت في أزمنةٍ متنوِّعة، على أيدي أشخاصٍ مختلفين، وفي ظروفٍ متنوّعةٍ بشكلٍ كبير. نجِدُ الله يتكلّم هنا "بأنواعٍ وطرقٍ كثيرة" (عبرانيّين 1: 1). وكلُّ عملٍ في الكتاب المقدَّس يعكس نظرةَ العصر الذي كُتِبَ فيه، ووجهة نظر كاتبه الخاصَّة. فالله لا يُلغي شخصيَّتنا المخلوقة بل يعزّزها. تتعاون النعمة الإلهيَّة مع الحرِّيَّة البشريَّة: فنحن "عاملون مع الله" (1 كورنثوس 3: 9). وكما ورد في الرسالة إلى ذيوغنيتوس من القرن الثاني: "الله يُقنع، ولا يُجبر؛ لأنَّ العنف غريبٌ عن الطبيعة الإلهيَّة". وهذا ينطبق تمامًا على كتابة الأسفار الموحى بها: لم يكن مؤلّف كلِّ سفرٍ مجرَّد أداةٍ غير فاعلة، أو مزمارٍ يعزف عليه الروح القدُس، أو آلةِ تسجيلٍ تُسجِّلُ رسالة،

بل أسهم كلُّ كاتبٍ بمواهبه البشريَّة الخاصَّة. فإلى جانب البُعد الإلهيِّ، ثمّة عنصرٌ بشريٌّ في الكتاب المقدَّس، وعلينا أن نُقدِّر كلَيهما.

على سبيل المثال، لكلٍّ من الإنجيليّين الأربعة وجهة نظره الخاصَّة. متَّى هو الأكثر "كنسيَّةً" والأكثر يهوديَّة بينهم، إذ يُظهر اهتمامًا خاصًّا بالعلاقة بين الإنجيل والشريعة اليهوديَّة، ويرى في المسيحيَّة "الشريعة الجديدة". أمّا مرقس، فيكتب بلُغةٍ يونانيَّةٍ أقلَّ فصاحة وأقرب إلى لغة الحياة اليوميَّة، ويُضمِّن روايته تفاصيل حيَّةً لا نجدُها في الأناجيل الأخرى. يُبرز لوقا شموليَّة محبَّة المسيح ورحمته التي تحتضن اليهود والأمم على حدٍّ سواء. أمّا الإنجيل الرابع، فيُعبِّر عن مقاربةٍ داخليَّةٍ أكثر عُمقًا وميستيكيّة، وقد وصفه القدِّيس إكليمنضوس الإسكندريُّ بحقٍّ بأنَّه "إنجيلٌ روحيٌّ". فلنستكشف هذا التنوُّع المُحيي في الكتاب المقدَّس، ولنفرح به إلى أقصى حدّ.

بما أنَّ الكتاب المقدَّس هو كلام الله المعبَّر عنه بلُغةٍ بشريَّة، فإنَّ هناك مجالًا للبحث النقديّ الصادق والدقيق عند دراسته. فعقلُنا المفكِّرُ هو عطيَّةٌ من الله، ولا ينبغي لنا أن نخاف من استخدامه إلى أقصى حدٍّ عند قراءة الكتاب المقدَّس. يهمل المسيحيّون الأرثوذكس نتائج الأبحاث العلميَّة المستقلَّة حول أصل الكتاب المقدَّس وتواريخه ومؤلّفي أسفاره، وهو أمرٌ مضرٌّ لنا، علمًا بأنّنا سنحرص دائمًا على اختبار هذه النتائج في ضوء التقليد المقدّس.

لكنْ، إلى جانب هذا العنصر البشريِّ، يجب علينا دائمًا أن نرى الجانب الإلهيّ. فهذه النصوص ليست مجرَّد أعمالٍ لمؤلِّفين منفردين، وما نسمعه في الكتاب المقدَّس ليس مجرَّد كلماتٍ بشريَّةٍ تتفاوت في المهارة والبصيرة، بل هو كلمة الله غير المخلوق نفسه -كلمة الآب "المنبعث من الصمت"، على حدِّ تعبير القدِّيس إغناطيوس الأنطاكيّ- كلمة الخلاص الأزليّ. وهكذا، فإنّنا لا نقترب من الكتاب المقدَّس بدافع الفضول أو للحصول على معلوماتٍ تاريخيَّة، بل نقترب بسؤالٍ محدَّد هو: **"كيف أخلُص؟"**.

القبول المُطيع لكلمة الله يعني قبل كلِّ شيءٍ هذين الأمرَين: **حسُّ الدهَش**، وروح **الإصغاء**.

(1) إنَّ **الدهَش** ينطفئ بسهولة. ألا نشعر في كثيرٍ من الأحيان، فيما نقرأ الكتاب المقدَّس، أنَّه أصبح مألوفًا أكثر من اللَّازم، بل وحتَّى مُملًّا؟ ألمْ نفقد التيقُّظ وحسَّ الترقُّب اللَّذين كنّا نُظهِرهما في أثناء القراءة؟ إلى أيِّ مدىً يُغيّرنا ما نقرأه؟ إنَّنا بحاجةٍ دائمةٍ إلى تنقية أبواب إدراكنا، والنظر بأعيُنٍ جديدةٍ مُفعَمةٍ بالرهبة والدهَش إلى الأعجوبة التي أمامنا – الأعجوبة الحاضرة دائمًا، التي هي كلمة الله الإلهيّة، كلمة الخلاص المعبَّر عنها بلُغةٍ بشريَّة. وكما قال أفلاطون: "بداية الحقيقة هي أن تندهش من الأشياء".

منذ بضع سنوات، رأيتُ حلمًا لا أزال أتذكّره بوضوح. رأيتُ أنّني في البيت الذي عشتُ فيه ثلاث سنواتٍ من طفولتي في مدرسةٍ داخليَّة. أخذني صديقٌ أوَّلًا عبر الغرف المألوفة لديَّ من سنوات طفولتي التي أتذكّرها. ثمّ، في الحلم، دخلنا غرفًا أخرى لم أكن قد رأيتُها من قبل - كانت واسعةً وأنيقةً ويغمرها النور. وأخيرًا، وصلنا إلى كنيسةٍ صغيرةٍ مُظلمةٍ تتلألأ فيها الفسيفساء الذهبيَّة تحت ضوء الشُّموع. قلتُ لصاحبي: "يا للعجب، لقد عشتُ هنا طويلًا، ومع ذلك، لم أكن أعلم بوجود هذه الغرف كلِّها"، فأجابني: "هكذا هي الحال دائمًا". ثمّ استيقظتُ، وإذا به حلم.

أفلا ينبغي لنا أن نُبدي في حضْرة الكتاب المقدَّس دهشًا مماثلًا، والشعور عينه بالفرح والاكتشاف الذي اختبرتُه أنا في حلمي؟ إنَّ في الكتاب المقدَّس غرفًا كثيرةً لم ندخلها بعد، وما زال هناك الكثير لنكتشفه.

(2) وإذا كانت الطاعة تعني الدهَش، فهي تعني أيضًا **الإصغاء**. وهذا بالفعل هو المعنى الحرفيُّ للفعل "يُطيع" في اليونانيَّة واللاتينيَّة - يصغي. لكنَّ المشكلة هي أنَّ معظمنا يُجيد الكلام أكثر مما يُجيد الإصغاء. لقد لخَّصَت إحدى حلقات برنامج "الغونز" (الأغبياء)، الذي كنتُ أتابعه بشغفٍ أيَّام الدراسة، هذه المُعضلة بطرافة: يرنُّ الهاتف، فيردُّ أحد الشخصيَّات ويقول: "مرحبًا، مرحبًا، مرحبًا!". ترتفع نبرة صوته وهو يقول: "مَن المتكلِّم؟ لا أسمعكَ. مَن المتكلِّم؟"، فيردُّ صوتٌ من الطرف الآخر من المكالمة: "أنتَ هو المتكلِّم"، فيقول: "آه، كنتُ أقول لنفسي إنَّ الصوت مألوف". ثم يُغلق السمَّاعة.

من المتطلَّبات الأساسيَّة لاكتساب "فكرٍ كتابيّ" هو أن نتوقَّف عن الكلام ونبدأ بالإصغاء. عندما ندخل كنيسةً أرثوذكسيَّة مزيَّنةً بالطريقة التقليديَّة، ونرفع أنظارنا نحو الهيكل، نرى في الحَنيّة أيقونة والدة الإله رافعةً يدَيها نحو السماء - وهي الوضعيّة الكتابيَّة القديمة للصلاة التي لا يزال كثيرون يستخدمونها حتَّى اليوم.

هكذا ينبغي أن يكون موقفُنا من الكتاب المقدَّس أيضًا - موقف انفتاحٍ واقتبالٍ مُنتبِه، وأيدينا ممدودة نحو السماء على نحوٍ غير منظور.

وهكذا، حين نقرأ الكتاب المقدَّس، علينا أن نقتدي بالقدِّيسة مريم العذراء، فهي المثال الأسمى لمَن يُصغي. عند البشارة، حين أصغت إلى الملاك، أجابت بِطاعةٍ: "ليكُن لي كقولكَ" (لوقا 1: 38). لو لم تُصْغِ أوّلًا إلى كلام الله وتقبَلْه روحيًّا في قلبها، لما كانت حملَت كلمة الله جسديًّا في رحمها. وهذا الإصغاء المتقبِّل ظلَّ سلوكَها طول الرواية الإنجيليَّة. فعند ميلاد المسيح، بعد سجود الرُّعاة، كانت مريم "تحفظ جميع هذا الكلام متفكِّرةً به في قلبها" (لوقا 2: 19). وبعد زيارة أورشليم حين كان يسوع في الثانية عشرة من عمره، "كانت أمُّه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها" (لوقا 2: 51). تتجلَّى الأهمّيّة الجوهريَّة للإصغاء أيضًا في آخر الكلمات المنسوبة إلى والدة الإله في الكتاب المقدَّس، في عرس قانا الجليل، حين قالت للخدَّام - ولكلِّ واحدٍ منَّا: "مهما قالَ لكم فافعلوه" (يوحنّا 2: 5).

في هذا كلِّه، تكون العذراء مرآةً وأيقونةً حيَّةً للمسيحيِّ الكتابيّ. فعند إصغائنا إلى كلام الله، نحن مدعوُّون لأن نكون مثلها: متأمّلين، وحافظين هذه الأمور في قلوبنا، وفاعلين كلَّ ما يأمرنا به. علينا أن نُصغي بِطاعةٍ بينما يتكلَّم الله.

فهْمُ الكتاب المقدَّس من خلال الكنيسة

أكّد مؤتمر موسكو: "نحن نعرف الكتاب المقدَّس، ونتلقّاه، ونُفسّره من خلال الكنيسة وفي الكنيسة". مقاربتنا للكتاب المقدَّس ليست فقط مُطيعة، بل أيضًا كنسيّة. كلمات الكتاب المقدَّس هي موجَّهةٌ إلينا شخصيًّا، وفي الوقت عينه موجَّهةٌ إلينا كأعضاء في جماعة. لا ينبغي فصْلُ الكتاب والكنيسة عن بعضهما.

تتجلَّى علاقة التبادل (interdependence) بين الكنيسة والكتاب المقدَّس في جانبَين على الأقلّ:

أوّلًا، نحن **نتلقّى** الكتاب المقدَّس من خلال الكنيسة وفيها. فالكنيسة هي التي تُخبرنا أيّ الكتب هي أسفارٌ مقدَّسة. في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسيحيَّة، كان لا بدَّ من عمليّةٍ طويلةٍ من التمحيص والاختبار لتمييز ما هو "قانونيٌّ" بحقٍّ -أي ما يشهد بشهادةٍ موثوقةٍ لشخصِ المسيح ورسالته- عن"المنحول" الّذي قد

يكون مفيدًا للتعليم، لكنَّه لا يُعدُّ مصدرًا معياريًّا للعقيدة. وهكذا، فإنَّ الكنيسة هي التي حدَّدت أيّ الكتب تُشكِّل قانون العهد الجديد. لا يُعَدُّ السِّفر جزءًا من الكتاب المقدَّس بسبب نظريَّةٍ معيَّنةٍ حول تاريخ تأليفه أو كاتبه، بل لأنَّ الكنيسة تتعامل معه على أنَّه قانونيّ. فلو افترضنا مثلًا أنَّه تمَّ إثبات أنَّ الإنجيل الرابع لم يُكتَب فعليًّا على يد القدِّيس يوحنَّا الحبيب -برأيي، هناك في الواقع أسبابٌ قويَّةٌ للاستمرار في قبول نسبته إليه- فإنّ ذلك لن يُغيّر من حقيقة أنَّنا نعتبر الإنجيل الرابع سفرًا مقدَّسًا. لماذا؟ لأنّ الإنجيل الرابع، أيًّا يكُن مؤلِّفه، مقبولٌ من الكنيسة وفي الكنيسة.

ثانيًا، نحن **نفسِّر** الكتاب المقدَّس من خلال الكنيسة وفيها. فإذا كانت الكنيسة هي التي تُخبرنا أيّ الكتب هي أسفار مقدَّسة، فهي أيضًا التي تُرشدنا إلى كيفيَّة فهْم هذه الأسفار. حين صادفَ فيلبُّس الشمَّاس الرجل الحبشيَّ وهو يقرأ العهد القديم في مركبته، سأله: "ألعلّكَ تفهم ما أنتَ تقرأ؟"، فأجاب الحبشيّ: "كيف يمكنني إنْ لم يُرشدني أحدٌ؟" (أعمال الرسل 8: 30-31).

إنَّ الصعوبة التي واجهها الحبشيُّ هي أيضًا صعوبتنا. فكلمات الكتاب المقدَّس ليست دائمًا واضحةً بذاتها. يتمتَّع الكتاب المقدَّس ببساطةٍ رائعةٍ في جوهره، لكنْ، حين يُدرَسُ بتفصيلٍ، يتبيَّن أنَّه صعب. نعم، يتكلّم الله مباشرةً إلى قلبِ كلِّ واحدٍ منَّا في أثناء قراءتنا للكتاب المقدَّس -كما يقول القدِّيس تيخون، قراءتنا هي حوارٌ شخصيٌّ بين كلِّ واحدٍ منَّا وبين المسيح نفسه- لكنّنا أيضًا بحاجةٍ إلى إرشاد. ومرشدنا هو الكنيسة. نستفيد من فهمنا الشخصيَّ استفادةً تامّة، مُستنيرين بالروح القدس؛ ونستفيد من الشروحات الكتابيَّة ومن نتائج البحث العلميِّ الحديث؛ لكنّنا نُخضِع الآراء الفرديَّة، سواءٌ أكانت آراءنا أم آراء العلماء، لحُكم الكنيسة.

نحن نقرأ الكتاب المقدَّس على نحوٍ شخصيٍّ، لكنْ لا كأفرادٍ منعزلين. لا نقول "أنا"، بل نقول "نحن". نقرأ كأعضاء في عائلة، عائلة الكنيسة الأرثوذكسيَّة الجامعة. نقرأ في شركةٍ مع سائر أعضاء جسد المسيح في أنحاء العالم كلِّه، وفي الأجيال كلِّها. يتجلَّى هذا النَّهج الجماعيَّ أو الجامع تجاه الكتاب المقدَّس في أحد الأسئلة التي تُطرَح على المتحوِّل (convert) خلال خدمة الاستقبال المستخدَمة في الكنيسة الروسيَّة:

"هل تُقرُّ بأنَّ الكتاب المقدَّس يجب أن يُقبَل ويُفسَّر وفقًا للإيمان الذي سلَّمه الآباء القدِّيسون، والذي تمسَّكت به الكنيسة الأرثوذكسية المقدَّسة، أمُّنا، على الدوام ولا تزال تتمسَّك به؟". فالمعيار الحاسم لفهمنا لمعنى الكتاب المقدَّس **هو فكرُ الكنيسة.**

من أين نبدأ لاكتشاف "فكر الكنيسة"؟ الخطوة الأولى هي أن نلاحظ كيف يُستخدَم الكتاب المقدَّس في العبادة. كيف يجري اختيار القراءات الكتابيَّة في الأعياد المختلفة؟ والخطوة الثانية هي الرجوع إلى كتابات آباء الكنيسة، لا سيَّما القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم. كيف يُحلِّل هؤلاء الآباء النصَّ الكتابيَّ ويُطبِّقونه؟ فالقراءة الكنسيَّة للكتاب المقدَّس هي **بهذه الطريقة ليتورجيَّة وآبائيَّة** في آنٍ.

ولتوضيح معنى تفسير الكتاب المقدَّس بطريقةٍ ليتورجيَّة، فلنتأمَّلْ في قراءات العهد القديم التي تُقرأ خلال صلاة الغروب في عيد البشارة (25 آذار)، وفي غروب يوم السبت العظيم، وهو الجزء الأوَّل من السهرانيَّة الفصحيَّة القديمة. في عيد البشارة، نجِدُ خمس قراءات:

1. تكوين 28: 10–17: حلم يعقوب بالسُلَّم المنصوبة من الأرض إلى السماء.
2. حزقيال 44: 1-3: رؤيا النبيِّ لهيكل أورشليم، والباب المغلق الذي لا يَعبُر منه إلَّا الرئيس.
3. أمثال 9: 1–11: أحد النصوص الحكميّة العظيمة في العهد القديم، يبدأ بـ "الحِكمة بنَتْ بيتها".
4. خروج 3: 1–8: موسى عند العلّيقة المشتعلة.
5. أمثال 8: 22–30: نصٌّ حكميٌّ آخر، يصِفُ مكانة الحكمة في العناية الإلهيَّة الأزليَّة: "الربُّ قناني أوّل طريقه، من قبل أعماله، منذ القِدم".

في هذه المقاطع من العهد القديم، نجِدُ سلسلةً من الصور القويَّة التي تُشير إلى دور والدة الإلَه في خطَّة الله المتكشِّفة للخلاص. هي سُلَّم يعقوب، إذ من خلالها ينزل الله ويدخل عالمنا، متَّخذًا الجسد الذي تمنحه إيّاه. هي أمٌّ ودائمة البتوليَّة؛ ولد منها المسيح، ومع ذلك بقيت عفيفة، وباب بتوليّتها مختوم. هي التي تُقدّم الطبيعة البشريَّة أو "البيت" الذي يتَّخذه المسيح، "حكمة الله" (1 كورنثوس 1: 24)، مَسكنًا له؛ ويمكن اعتبارها هي نفسها حكمة الله. هي العلَّيقة المشتعلة التي احتوت في رحمها النار غير المخلوقة للألوهة، ومع ذلك لم تحترق. ومنذ الأزل، "قبل أن تكون الأرض"، سبقَ واختارها الله لتكون أمَّه.

عند قراءة هذه النصوص في سياقها الأصليِّ ضمن العهد القديم، قد لا ندرك فورًا أنَّها تُنبئ بتجسُّد المخلِّص من العذراء. لكنْ من خلال التأمُّل في كيفيَّة استخدام الكنيسة لهذه النصوص في قراءاتها اللِّيتورجيَّة، نستطيع أن نكتشف طبقاتٍ متعدِّدةً من المعاني التي لا تكون واضحةً للوهلة الأولى.

يحدث الأمر عينه عندما نتأمَّل في كيفيَّة استخدام الكتاب المقدَّس في يوم السبت العظيم. ففي هذا اليوم، يوجد ما لا يقلُّ عن خمس عشرة قراءةً من العهد القديم. ومن المؤسِف أنَّ معظم هذه القراءات تُهمَل في كثيرٍ من رعايانا، فيُحرَم شعب الله من غذائه الكتابيِّ الضروريّ. إنَّ هذه السلسلة الطويلة من القراءات تكشف لنا المعنى الأعمق لـ"عبور" المسيح من الموت إلى القيامة. أولى هذه القراءات هي رواية الخلق (تكوين 1: 1–13): قيامة المسيح هي خلقٌ جديد (2 كورنثوس 5: 17؛ رؤيا 21: 5)، وبداية عصرٍ جديد هو الدَّهر الآتي. أمَّا القراءة الثالثة، فتصِفُ الطقسَ اليهوديَّ لوجبة الفصح: فالمسيح المصلوب والقائم هو الفصح الجديد، الحمل الفصحيُّ الذي وحده يمكن أن يرفع خطيئة العالم (1 كورنثوس 5: 7؛ يوحنا 1: 29). القراءة الرابعة هي سِفر يونان كاملًا: الأيَّام الثلاثة التي قضاها النبيُّ في جوف الحوت تُنبئ بقيامة المسيح بعد ثلاثة أيَّام في القبر (متَّى 12: 40). والقراءة السادسة تروي قصَّة عبور بني إسرائيل للبحر الأحمر (خروج 13: 20 – 15: 19): المسيح يقودنا من عبوديَّة مصر (الخطيئة)، عبر البحر الأحمر (المعموديّة)، إلى أرض الميعاد (الكنيسة). أمّا القراءة الأخيرة، فهي قصَّة الفتية الثلاثة القدِّيسين في أتّون النار (دانيال 3)، وهي مرَّة أخرى "رمز" أو نبوءةٌ لقيامة المسيح من القبر.

كيف يمكننا أن نُنمِّي هذا النهج الكنسيَّ والليتورجيَّ في قراءة الكتاب المقدَّس ضمن حلقات دراسة الكتاب في رعايانا؟ يمكن تكليف أحد الأعضاء بتتبُّع متَى يُستخدم مقطعٌ معيَّنٌ في عيدٍ أو تذكار قدِّيس، ويمكن لأفراد المجموعة عندها أن يناقشوا معًا سبب هذا الاختيار. ويمكن تكليف آخرين ضمن المجموعة بالبحث في كتابات آباء الكنيسة، معتمدين بشكل رئيسيٍّ على العِظات الكتابيَّة للقدِّيس يوحنَّا الذهبيِّ الفم، وهي متوفِّرة بالإنجليزيّة ضمن سلسلة "آباء نيقية وما بعد نيقية"، التي أعادت دار إيردمانز إصدارها. قد نشعر في البداية بخيبة أمل، لأنّ طريقة الآباء بالتفكير والحديث تختلف بشكلٍ صارخٍ عن أسلوبنا المعاصر. لكنْ، يوجد في نصوص الآباء ذهبٌ دفين، إذا ما امتلكنا المثابرة والبصيرة لاكتشافه.

المسيح، قلب الكتاب المقدَّس

المتطلَّب الثالث في قراءتنا للكتاب المقدَّس هو أن تكون قراءةً متمركزةً حول المسيح. فإذا اتَّفقنا مع مؤتمر موسكو عام 1976 على أنَّ "الأسفار المقدَّسة تُشكِّل وحدةً متماسكة"، فأين نجِدُ هذه الوحدة وهذا الاتِّساق؟ نجدهما في **شخص المسيح**. هو الخيط الموحِّد الذي يمتدُّ عبر الكتاب المقدَّس كلِّه، من أوَّل جملةٍ إلى آخر جملةٍ فيه. يسوع يلقانا في كلِّ صفحةٍ من الكتاب. كلُّ شيءٍ يترابطُ ويتماسك بسببه. "فيه يقوم (يتماسك) الكلّ" (كولوسي 1: 17).

لقد تبنَّى كثيرٌ من الباحثين الغربيِّين المعاصرين في دراستهم للكتاب المقدَّس منهجًا تحليليًّا، يفكِّكون فيه كلَّ سفرٍ إلى ما يُعتقد أنَّها مصادره الأصليَّة. فتتفكَّك الروابط، ويُختزل السِّفر إلى سلسلةٍ من الوحدات المتفرِّقة المعزولة. لكنْ في الآونة الأخيرة، ظهرَت ردَّة فعلٍ تجاه هذا النهج، وبدأ النقَّاد الكتابيُّون في الغرب يُولون اهتمامًا أكبر للطريقة التي جرى بها جمْعُ هذه الوحدات الأوليَّة وربطها ببعضها. وهذا أمرٌ يمكننا نحن الأرثوذكس أن نرحِّب به بكلِّ تأكيد. علينا أن نرى وحدة الكتاب المقدَّس إلى جانب تنوُّعه، ونرى نهايته الجامعة إلى جانب بداياته المتفرِّقة. تميل الأرثوذكسيَّة غالبًا إلى أسلوبٍ "تركيبيٍّ" في التفسير عوضًا عن الأسلوب التحليليّ، فترى الكتاب المقدَّس ككُلٍّ متكامل، والمسيح حاضرٌ فيه في كلِّ موضع، كرباطٍ للوحدة.

وهذا، كما رأينا، هو بالضبط الأثر الناجم عن قراءة الكتاب المقدَّس ضمن سياق العبادة الكنسيَّة. فكما تُظهر قراءات عيد البشارة ويوم السبت العظيم، في كلِّ موضعٍ من العهد القديم نجد علاماتٍ وإشاراتٍ تُشير إلى سرِّ المسيح وأمِّه مريم. وعندما نُفسِّر العهد القديم في ضوء العهد الجديد، ونُفسِّر الجديد في ضوء القديم -كما تشجِّعنا الكنيسة من خلال ترتيب قراءاتها- نكتشف كيف أنَّ الكتاب المقدَّس بأكمله يجد نقطة التقائه في شخص المخلِّص.

تُكثِر الأرثوذكسيّة من استخدام منهج التفسير "الرمزيّ"، حيث تُكتشف "رموز" المسيح وعلامات عمله ورموزه في مختلف مواضع العهد القديم. فمثلاً، يُعَدُّ ملكيصادق، كاهن ملك شاليم الذي قدَّم خبزًا وخمرًا لإبراهيم (تكوين 14: 18)، رمزًا للمسيح، ليس فقط في كتابات الآباء، بل أيضًا في العهد الجديد نفسه

(عبرانيِّين 5: 6؛ 7: 1–19). والصخرة التي تفجَّرت منها المياه في بريَّة سيناء (خروج 17: 6؛ عدد 30: 7–11)، هي أيضًا رمزٌ للمسيح (1 كورنثوس 10: 4). ويُفسّر هذا المنهج الرمزيُّ اختيار القراءات، ليس فقط في يوم السبت العظيم، بل أيضًا خلال النصف الثاني من الصوم الكبير. لماذا تهيمن شخصيَّة يوسف على قراءات سفر التكوين في الأسبوع السادس؟ ولماذا نقرأ من سفر أيّوب في أسبوع الآلام؟ لأنّ يوسف وأيّوب، اللذَين تألَّما بغير ذنب، يُنبِئان بآلام المسيح الخلاصيَّة على الصليب.

ويمكننا أن نكتشف العديد من الروابط الأخرى بين العهدَين القديم والجديد باستخدام فهرسٍ كتابيّ. غالبًا ما يكون الفهرسُ أفضلَ تفسير، أو نسخة من الكتاب المقدَّس مزوَّدة بإشاراتٍ مرجعيَّةٍ هامشيةٍ مختارة بعناية. فقط اربط بين النصوص وستجد كلَّ شيءٍ يترابط. وكما قال الأب ألكسندر شميمن: "المسيحيُّ هو مَن يرى المسيح أينما ينظر، ويفرح فيه". وهذا ينطبق بخاصّةٍ على المسيحيِّ الكتابيّ: أينما ينظر، في كلِّ صفحة، يجد المسيح حاضرًا في كلِّ مكان.

الكتاب المقدَّس كخطابٍ شخصيّ

بحسب القدِّيس مرقس الراهب ("مرقس الناسك"، القرن الخامس/السادس)، "مَن كان متواضعًا في أفكاره ومنهمكًا في العمل الروحيِّ، فإنَّه حين يقرأ الأسفار المقدَّسة، يطبّق كلَّ شيءٍ على نفسه، لا على قريبه". نحن مدعوُّون إلى البحث في أرجاء الكتاب المقدَّس عن تطبيقٍ شخصيّ. لا ينبغي أن يكون سؤالنا فقط: "ما معنى هذا؟"، بل: "ما معناه بالنسبة لي أنا؟". وكما يؤكِّد القدِّيس تيخون: "المسيح نفسه هو مَن يخاطبك". فالكتاب المقدَّس هو حوارٌ مباشرٌ وحميمٌ بين المخلِّص وبيني - يخاطبني المسيح، وقلبي يُجيب. هذا هو المعيار الرابع في قراءتنا للكتاب المقدَّس.

ينبغي لي أن أرى كلَّ قصص الكتاب المقدَّس كجزءٍ من قصَّتي الشخصيَّة. فسقطة آدم هي أيضًا وصفٌ لأمرٍ ما في تجربتي الخاصَّة. مَن هو آدم؟ اسمه يعني ببساطة "إنسان"، "بشريّ": أنا هو آدم. ولي يقول الله: "أين أنتَ؟" (تكوين 3: 9). كثيرًا ما نسأل: "أين الله؟"، لكنَّ السؤال الحقيقي هو ذاك الذي يوجِّهه الله إلى آدم الذي في داخل كلِّ واحدٍ منَّا: "أين أنت؟".

ومَن هو قايين، قاتل أخيه؟ إنَّه أنا. ومجابهة الله له: "أين هابيل أخوك؟" (تكوين 4: 9) موجَّهةٌ إلى قايين الذي في داخل كلِّ واحدٍ منَّا. فالطريق إلى الله يمرّ عبر محبَّة الآخرين، ولا توجد طريقٌ سواها. وحين أتنكَّر لأخي أو أختي، أُبدِّل صورة الله بعلامة قايين، وأُنكر إنسانيَّتي الجوهريّة.

يتجلَّى التطبيق الشخصيِّ عينه في خدم الصوم الكبير أيضًا، لا سيّما في القانون العظيم للقدِّيس أندراوس الكريتيّ. فنحن نقول: "أنا الرجل الذي وقع بين اللُّصوص" (انظر لوقا 10: 30)،

ونقول: "كنتُ ابنك الأصغر، وبدّدتُ الثروة التي منحتني إيّاها... وها أنا الآن جائعٌ ومحروم" (انظر لوقا 15: 11–14). كان آباء البريَّة في مصر يسألون: "مَن هم الخراف، ومَن هم الجداء؟" (انظر متى 25: 31–46)، فيجيبون: "الخراف معروفةٌ لدى الله، أمّا الجداء، فأنا".

ثمّة ثلاث خطواتٍ ينبغي اتِّباعها عند قراءة الكتاب المقدَّس:

أوّلًا، نتأمَّل في أنَّ ما لدينا في الكتاب المقدَّس هو **تاريخٌ مقدَّس**: تاريخ العالم منذ الخلق، تاريخ شعب الله المختار، تاريخ الله نفسه متجسّدًا في فلسطين، وتاريخ "عظائم الله" (أعمال 2: 11) بعد العنصرة. وينبغي ألَّا ننسى مطلقًا أنَّ ما نجده في الكتاب المقدَّس ليس أيديولوجيا، ولا نظريَّة فلسفيَّة، بل هو إيمانٌ تاريخيّ.

ثانيًا، نلاحظ **الخصوصيَّة** والتحديد اللّذين يتّسم بهما هذا التاريخ المقدَّس. في الكتاب المقدَّس، نجد الله يتدخَّل في أوقاتٍ محدَّدة، وفي أماكن معيَّنة، ويدخل في حوارٍ مع أفراد. نرى أمامنا دعواتٍ متميِّزة يوجِّهها الله لكلِّ شخصٍ على حدة: لإبراهيم، وموسى، وداود، ورفقة وراعوث، وإشعياء والأنبياء. نرى الله يتجسَّد مرّةً واحدةً فقط، في زاويةٍ معيَّنةٍ من الأرض، في لحظةٍ معيَّنة، ومن أمٍّ معيَّنة. ولا ينبغي أن تُعتبَر هذه الخصوصيَّة عثرةً، بل بركة. فمحبّة الله شاملةٌ في مداها، لكنَّها دائمًا شخصيَّةٌ في تعبيرها.

هذا الإحساس بخصوصيَّة الكتاب المقدَّس هو عنصرٌ جوهريٌّ في "الفِكر الكتابيّ" الأرثوذكسيّ. إذا كنَّا حقًّا نحبُّ الكتاب المقدَّس، فسنحبُّ الأنساب وتفاصيل التواريخ والجغرافيا. ومن أفضل الطرائق لإفعام دراسة الكتاب المقدَّس بالحياة هي القيام بحجٍّ إلى الأرض المقدَّسة: امشوا حيث مشى المسيح، انزلوا قرب البحر الميت، اصعدوا جبل التجربة، تأمَّلوا القفر، اشعروا بما شعرَ به المسيح خلال الأربعين يومًا التي قضاها

وحده في البرِّيَّة. اشربوا من البئر التي تحدّث قربها يسوع مع المرأة السامريَّة، اركبوا قاربًا في بحر الجليل، واطلبوا من البحَّارة إيقاف المحرِّك، وانظروا بصمتٍ عبر المياه. اذهبوا ليلًا إلى بستان الجثسمانيّة، اجلسوا في الظلمة تحت الزيتون العتيق، وانظروا عبر الوادي إلى أضواء المدينة. تذوّقوا إلى أقصى حدٍّ "الحضور" المميَّز للبيئة التاريخيَّة، واحملوا تلك الخبرة إلى قراءتكم اليوميَّة للكتاب المقدَّس.

ثمّ ننتقل إلى الخطوة الثالثة: بعد أن نُعيد عيش التاريخ الكتابيَّ بكلِّ خصوصيّته، نُسقِطه **مباشرةً على أنفسنا**. نقول لأنفسنا: "هذه ليست أماكن بعيدة، ولا أحداثًا من الماضي البعيد. إنها جزءٌ من لقائي الشخصيِّ مع الربِّ. القصص تشملني".

فالخيانة، على سبيل المثال، هي جزءٌ من القصّة الشخصيَّة لكلِّ واحدٍ منَّا. ألم نخُنِ الآخرين في وقتٍ ما من حياتنا؟ ألم نختبر ما يعني أن يُخوننا أحد؟ ألا تترك ذكريات تلك اللحظات نُدوبًا عميقةً مستمرَّةً في النفس؟ وعندما نقرأ قصَّة خيانة القدِّيس بطرس للمسيح، ثمّ استعادته بعد القيامة، نرى أنفسنا كمشاركين في القصّة. عندما نتخيَّل ما شعر به كلٌّ من بطرس والمسيح في اللَّحظة التي تلت الخيانة مباشرةً، فإنَّنا نجعل مشاعرهما مشاعرنا. أنا هو بطرس؛ وفي موقف الخيانة، هل يمكنني أن أكون المسيحَ أيضًا؟ عندما نرى كيف أنّ المخلِّص القائم أعادَ بطرس الساقط إلى الشركة، وذلك بمحبّةٍ خاليةٍ من العاطفيَّة، ونرى كيف أنَّ بطرس، من جهته، امتلك التواضع والشجاعة لقبول هذه الاستعادة، نتأمّل في لحظة المصالحة ونسأل أنفسنا: كم أنا شبيهٌ بالمسيح تجاه مَن خانَني؟ وبعد خياناتي الشخصيَّة للآخرين، هل أستطيع قبول غفران الآخرين؟ هل أستطيع أن أغفر لنفسي؟

خُذوا مثلًا آخر: "المرأة الخاطئة" التي سكبت قارورة الطيب على قدمَي المسيح (لوقا 7: 36–50)، والتي يقول بعضهم إنَّها القدِّيسة مريم المجدليَّة، مع أنَّ هذا ليس هو التفسير الأرثوذكسيَّ المعتاد. هل أستطيع أن أرى نفسي فيها؟ هل أشارك في سخائها، وفي عفويّتها واندفاعها المُحبّ؟ "غُفِرت لها خطاياها الكثيرة لأنّها أحبَّت كثيرًا". أم أنّني حريصٌ، وبخيلٌ، ومتردِّدٌ، ومُحجِمٌ، وغير راغبٍ البتّة في الالتزام الكامل بأيّ شيء، سواءٌ أكان خيرًا أم شرًّا؟ وكما يقول آباء البرّيّة: "إنَّ مَن خَطِئ، إنْ عرف ذلك وتاب، هو خيرٌ من الذي لم يخطأ ويحسب نفسه بارًّا".

إنّ هذا النهج الشخصيَّ في قراءة الكتاب المقدَّس يعني أنّنا لا نقرؤه ببساطةٍ كمراقبين مُحايدين وموضوعيِّين، ونمتصّ المعلومات، ونسجِّل الحقائق. فالكتاب المقدَّس ليس مجرَّد عملٍ أدبيٍّ أو مجموعة وثائق تاريخيَّة، مع أنه يمكن مقاربتُه على هذا المستوى بالطبع. هو، في جوهره، كتاب **مقدَّس**، موجَّه إلى **المؤمنين**، ليقرؤوه بإيمانٍ ومحبَّة. ولن نجني الثمار الحقيقيَّة من قراءة الأناجيل ما لم نكن واقعين في حبِّ المسيح. "القلب يُخاطب القلب". فأنا لا أدخل إلى حقيقة الكتاب المقدَّس الحيَّة إلّا حين يستجيب قلبي بمحبّةٍ لقلب الله.

عندما نقرأ الكتاب المقدَّس بهذه الطريقة -بطاعةٍ، كأعضاء في الكنيسة، ونرى المسيح في كلِّ موضع، ونرى كلَّ شيءٍ جزءًا من قصَّتنا الشخصية - سنشعر بشيءٍ من القوَّة والشفاء الكامنين في الكتاب المقدَّس. ومع ذلك، فإنَّنا في رحلتنا الكتابيَّة نبقى دائمًا في بدايتها فحسب. نحن كمَن يُبحر في قاربٍ صغيرٍ عبر محيطٍ لا حدود له. لكنْ، مهما كانت مدّة الرحلة، يمكننا أن نبدأها اليوم، في هذه الساعة، في هذه اللحظة بالذات.

عندما كان المغبوط أغسطينوس في ذروة أزمته الروحيَّة، وكان يصارع نفسه وحيدًا في الحديقة، سمع صوت طفلٍ ينادي: "خُذ واقرأ، خُذ واقرأ". فأخذ كتابه المقدَّس وقرأ، وما قرأه غيَّرَ حياته كلَّها. فلنفعلْ نحن أيضًا مثل ذلك: **"خُذوا واقرؤوا"**.

"سراجٌ لرجلي كلامُكَ ونورٌ لسبيلي" (مزمور 118 [119]: 105).

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Kallistos (Ware) of Diokleia (n.d.). “How to Read the Bible”, published online by the *Orthodox Church in America (OCA)*. Link.